بُنَاة دَولَـةِ الإسْلام

- ٤ -

ابنُ عمّة رسول اللّه صلّى اللّه عَليه وسلّم

الزُّبَيرُ بْنُ العَوام

رَضِيَ الله عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ، وَٱلصَّلاَةُ وَٱلسَّلاَمُ عَلَىٰ سَيِّدِ ٱلْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَبَعْدُ: فَإِنَّهُ عَلَىٰ ٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ٱلزُّبَيْرَ بْنَ ٱلْعَوَّامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ أَحَدُ ٱلْعَشَرَةِ ٱلْمُبَشَّرِينَ بِٱلْجَنَّةِ، وَٱبْنُ عَمَّةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَأَحَدُ رِجَالاَتِ قُرَيْشٍ ٱلْمَعْرُوفِينَ وَفُرْسَانِهَا ٱلْمَعْدُودِينَ؛ فَإِنَّ حَيَاتَهُ غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ تَمَاماً؛ حَيْثُ كَانَ يَعِيشُ في ظِلِّ ٱلصَّحَابَةِ ٱلآُخَرِينَ. يُعْرَفُ ٱسْمُ ٱلْقَائِدِ فِي ٱلْمَعَارِكِ، وَيُغْفَلُ ٱسْمُ ٱلْجُنُودِ ٱلأَبْطَالِ مَهْمَا كَانَتْ شَجَاعَتُهُمْ، وَمَهْمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ بُطُولاتُهُمْ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلزُّبَيْرُ يَرْغَبُ في ٱلْقِيَادَةِ؛ لِيَبْقَىٰ في عِدَادِ ٱلْمَغْمُورِينَ، يَطْلُبُ ٱلأَجْرَ مِنَ ٱللهِ، لا يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ ثَمَنَ أَعْمَالِهِ في هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلْفَانِيَةِ شُهْرَةً أَوْ جَاهاً أَوْ مَالاً أَوْ مَنْصِباً، بَلْ يَرْجُو كَمَا يَرْجُو بَقِيَّةُ ٱلصَّحَابَةِ أَنْ تَبْقَىٰ حَيَاتُهُ هٰكَذَا يُجَاهِدُ وَيَطْلُبُ ٱلشَّهَادَةَ لِيَظْفَرَ بِٱلآُخِرَةِ، وَيَغْزُو وَيَرْغَبُ فِي ٱلْجَنَّةِ جَزَاءَ عَمَلِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْمَعَ ذِكْرُهُ أَوْ يُعْرَفَ وَضْعُهُ.

وَمِنَ ٱلْمُؤْسِفِ أَنْ يَكُونَ ٱلْجُزْءُ ٱلْمَعْرُوفُ مِنْ حَيَاةِ ٱلزُّبَيْرِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ وَقْتُ ٱلْفِتْنَةِ، وَفِي أَواخِرِ حَيَاتِهِ، وَكَأَنَّمَا نُسِيَتْ حَيَاتُهُ ٱلأُولَىٰ وَأَعْمَالُهُ ٱلْعَظِيمَةُ، حَيْثُ سُلِّطَتِ ٱلأَضْوَاءُ عَلَىٰ هٰذِهِ ٱلْمَرْحَلَةِ مِنْ تَارِيخِ ٱلإِسْلاَمِ، وَكَثُرَ فِيهَا ٱلْحَدِيثُ، وَتَشَعَّبَتِ ٱلأَهْوَاءُ، وَزَادَ أَعْدَاءُ ٱلإِسْلاَمِ فِي ٱلطَّعْنِ بِٱفْتِرَاءَاتِهِمْ بِذِكْرِ مَوَاقِفَ لِلصَّحَابَةِ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ ٱلنَّظَرِ أَوْ يَبْدُو فِيهَا ٱلتَّرَدُّدُ أَوِ ٱلتَّنَاقُضُ وَ ـ حَسْبَ زَعْمِهِمْ ـ يَظُنُّونَ أَنَّ قِيمَةَ ٱلإِسْلاَمِ تَخِفُّ مِنَ ٱلنُّفُوسِ بِوَصْفِ رِجَالاَتِهِ ٱلْبَارِزِينَ وَصْفاً فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلتَّجَنِّي، وَيَجْهَلُونَ أَنَّ تَقْوِيمَ ٱلْمَرْءِ عِنْدَنَا لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِمِقْدَارِ تَمَسُّكِهِ بِٱلإِسْلاَمِ وَتَطْبِيقِهِ لَهُ. وَرُبَّمَا كَانَ مِنَ ٱلرِّجَالِ ٱلَّذِينَ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ هٰذَا ٱلْوَصْفُ هُوَ سَيِّدُنَا ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ.

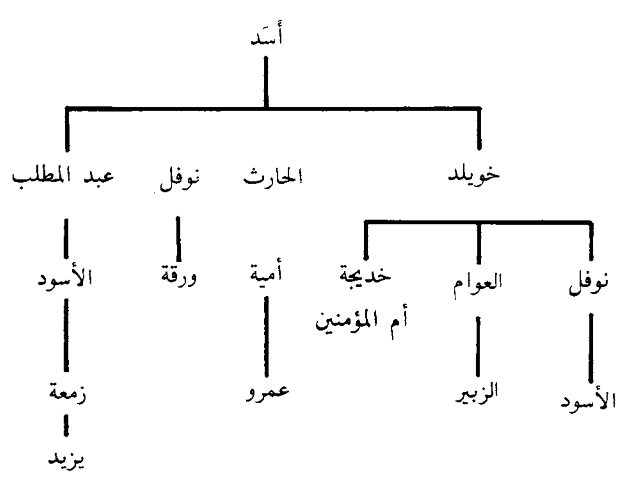
وَإِذَا كَانَ ٱلإِنْسَانُ يَعْجَزُ عَنْ أَنْ يُعْطِيَ صُورَةً صَادِقَةً لأَحَدِ ٱلصَّحَابَةِ لِمَا فِيهَا مِنْ أَيَّامٍ نَاصِعَةٍ وَأَعْمَالٍ جَلِيلَةٍ وَمَوَاقِفَ بُطُولِيَّةٍ رَائِعَةٍ وَٱرْتِفَاعٍ بِٱلإِنْسَانِ وَسُمُوٍّ يَصِلُ فِيهِ إِلَىٰ فَوْقِ مُسْتَوَىٰ ٱلرِّجَالِ فَإِنَّهُ مِنَ ٱلصُّعُوبَةِ بِمَكَانٍ أَنْ يُقَدِّمَ تَعْرِيفاً لِصَحَابِيٍّ كَبِيرٍ فِي كُتَيِّبٍ صَغِيرٍ، إِلاَّ أَنَّ ٱلضَّرُورَةَ تَقْضِي أَنْ يَكُونَ ٱلتَّعْرِيفُ مُوجَزاً فَٱلْوَقْتُ ٱلضَّيِّقُ، وَحِرْصُ مُجْتَمَعَاتِ ٱلْيَوْمِ عَلَىٰ طَلَبِ ٱلإِخْتِصَارِ، وَأَخْذِ ٱلْمَعْلُومَاتِ عَنْ طَرِيقِ

جُرُعَاتٍ صَغِيرَةٍ فِي أَوْقَاتٍ قَلِيلَةٍ وَهٰذَا عُذْرِي فِي ٱلْإِخْتِصَارِ وَتَكْثِيفِ ٱلْمَعْلُومَاتِ وَعَـدَمِ إِلْقَـاءِ ٱلأَضْـوَاءِ عَلَـىٰ بَعْـضِ ٱلْمَوَاقِفِ ٱلْمَجِيدَةِ بِصُورَةٍ مُعَيَّنَةٍ.

فَأَرْجُو أَنْ يُوَفِّقَنِي ٱللهُ إِلَىٰ إِعْطَاءِ صُورَةٍ مُشْرِقَةٍ عَنْ هٰذَا ٱلْعَلَمِ وَٱلْقِمَّةِ ٱلشَّامِخَةِ وَاللهُ مِنْ وَرَاءِ ٱلْقَصْدِ.

أُسْـرَةُ الزُّبَـيْر

يَنْتَمِي ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ إِلَىٰ بَنِي أَسَدٍ أَحَدِ بُطُونِ قُرَيْشٍ ، وَإِذَا كَانَ بَنُو أَسَدٍ قَلِيلِي ٱلْعَدَدِ فِي ٱلْأَفْرَادِ إِلَّا أَنَّهُمُ ٱمْتَازُوا بِٱلْفُرُوسِيَّةِ وَٱلشَّجَاعَةِ .



لَقَدْ كَانَتْ بُطُونُ قُـرَيْشٍ تَتَـزَاوَجُ بَعْضُهَـا مِـنْ بَعْـضٍ ، وَيَحْرِصُ ٱلْآبَـاءُ أَنْ يُـزَوِّجُـوا أَبْنَـاءَهُـمْ مِـنْ بَنَـاتِ ٱلْأُسَـرِ ٱلْمَعْرُوفَةِ، وَيَخْتَارُوا لِبَنَاتِهِمْ مِنَ ٱلرِّجَالِ ٱلْمَشْهُورِينَ بِٱلْقُوَّةِ حَتَّىٰ يَجِدُوا لَهُمُ ٱلسَّنَدَ فِي ٱلشَّدَائِدِ .

ٱخْتَارَ خُوَيْلِدُ بْنُ أَسَدٍ لِوَلَدِهِ ٱلْعَوَّامِ ٱبْنَةَ سَيِّدِ قُرَيْشٍ آنَذَاكَ وَهِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ شَقِيقَةُ ٱلْحَمْزَةِ عَمِّ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَأُمُّهُمَا هَالَةُ بِنْتُ أُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ ٱلزُّهْرِيَّةُ، وَكَانَ ٱلْعَوَّامُ أَهْلاً لِهٰذَا ٱلزَّوَاجِ وَكُفْئاً لَهُ. وَبِهٰذَا ٱجْتَمَعَ لِوَلَدِ ٱلْعَوَّامِ شَرَفُ ٱلأُرُومَةِ وَطِيبُ ٱلْمَنْبَتِ. فَأَخَذَ ٱلزُّبَيْرُ مِنْ أُسْرَتِهِ (بَنِي أَسَدٍ) ٱلْفُرُوسِيَّةَ، وَمِنْ أُسْرَةِ أُمِّهِ (بَنِي هَاشِمٍ) ٱلْقُوَّةَ وَٱلسِّيَادَةَ، كَمَا ٱكْتَسَبَ مِنْ بَنِي زُهْرَةَ صَفَاءَ ٱلْفِكْرِ وَسَعَةَ ٱلأُفُقِ.

قُتِلَ ٱلْعَوَّامُ فِي حَرْبِ ٱلْفِجَارِ، وَكَانَتْ زَوْجُهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ حَامِلاً بِوَلَدِهِ ٱلزُّبَيْرِ ٱلَّذِي وُلِدَ وَلَمْ يَعْرِفْ أَبَاهُ، فَنَشَأَ يَتِيماً فَقِيراً.

وَكَانَتْ عَمَّتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَفِي ٱلْوَقْتِ نَفْسِهِ فَهُوَ ٱبْنُ عَمَّتِهِ صَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ.

صِفَاتُ الزُّبَيْر

كَانَ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ طَوِيلاً إِذَا رَكِبَ تَخُطُّ رِجْلاَهُ ٱلأَرْضَ، وَكَانَ قَوِيّاً، تَرَبَّىٰ مُنْذُ طُفُولَتِهِ تَرْبِيَةً قَاسِيَةً، وَحَرَصَتْ أُمُّهُ صَفِيَّةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنها عَلَىٰ ذَلِكَ؛ إِذْ عُرِفَتْ هِيَ بِقُوَّتِهَا كَمَا عُرِفَ إِخْوَتُهَا وَبِخَاصَّةٍ ٱلْحَمْزَةَ سَيِّدَ ٱلشُّهَدَاءِ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ ٱلَّذِي ضَرَبَ أَبَا جَهْلٍ عَمْرَو بْنَ هِشَامٍ ضَرْبَةً شَجَّهُ بِهَا شَجَّةً مُنْكَرَةً عِنْدَمَا بَلَغَهُ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَدْ شَتَمَ ٱبْنَ أَخِيهِ مُحَمَّداً ﷺ، وَأَبُو جَهْلٍ مِنْ أَشِدَّاءِ قُرَيْشٍ ٱلْمَعْرُوفِينَ. أَمَّا صَفِيَّةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا فَقَدْ نَزَلَتْ مِنْ حِصْنِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ـ فَارِعٍ ـ أَثْنَاءَ غَزْوَةِ ٱلْخَنْدَقِ، وَقَتَلَتْ يَهُودِيّاً بِعَمُودٍ، وَكَانَ هَذا ٱلْيَهُودِيُّ يَطُوفُ بِٱلْحِصْنِ. وَقَدْ حَارَبَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، وَقَطَعَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَلَيْسَ بَيْنَ نِسَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَصِبْيَانِهِمْ أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضِدَّ يَهُود، وَرَسُولُ ٱللهِ ﷺ وَٱلْمُسْلِمُونَ فِي نُحُورِ عَدُوِّهِمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُمْ إِنْ أَتَىٰ أَحَدٌ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ.

رَبَّتْ صَفِيَّةُ ٱبْنَهَا تَرْبِيَةً خَشِنَةً، فَكَانَتْ تَضْرِبُهُ ضَرْباً شَدِيداً؛ لِيَتَعَوَّدَ ٱلْحَيَاةَ ٱلْقَاسِيَةَ، فَيُلَبِّيَ دَاعِيَ ٱلْحَرْبِ، وَلاَ يَقْبَعَ فِي بَيْتِهِ كَٱلنِّسَاءِ. وَقَدْ عُرِفَ مِنَ ٱلصِّغَرِ بِقُوَّتِهِ، فَكَسَرَ يَدَ غُلاَمٍ، وَقَاتَلَ وَهُوَ غُلاَمٌ رَجُلاً، فَكَسَرَ يَدَهُ، وَضَرَبَهُ ضَرْباً شَدِيداً، وَكَانَ ذَلِكَ مَدْعَاةً لِفَخْرِ أُمِّهِ بِوَلَدِهَا وَشَجَاعَتِهِ. وَجَاءَ رَجُلٌ مَرَّةً إِلَىٰ صَفِيَّةَ فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ ٱلزُّبَيْرُ؟ قَالَتْ: وَمَا تُرِيدُ إِلَيْهِ، قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أُبَاطِشَهُ، فَقَالَتْ هَا هُوَ ذَاكَ، فَصَارَ إِلَىٰ ٱلزُّبَيْرِ، فَبَاطَشَهُ، فَغَلَبَهُ ٱلزُّبَيْرُ، فَمَرَّ ٱلرَّجُلُ بِصَفِيَّةَ مَغْلُولاً، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: كَيْفَ رَأَيْتَ زَبْراً أَأَقِطاً وَتَمْراً أَمْ قُرَشِيّاً صَقْراً.
وَعِنْدَمَا شَبَّ أَصْبَحَ مِنْ رِجَالِ ٱلإِسْلاَمِ ٱلْمَعْدُودِينَ، وَقَدْ شَهِدَتْ لَهُ بِذَلِكَ ٱلأَيَّامُ وَٱلْمَعَارِكُ ٱلَّتِي خَاضَهَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ.

وَأَنْجَبَ أَوْلاَداً ٱشْتَهَرُوا بِقُوَّتِهِمْ وَشَجَاعَتِهِمْ، مِنْهُمْ عَبْدُ ٱللهِ وَلَدُهُ ٱلأَكْبَرُ ٱلَّذِي كُنِيَ بِهِ، وَمُصْعَبٌ وَعُرْوَةُ وَمُنْذِرٌ وَعَمْرٌو وَعُبَيْدَةُ وَجَعْفَرٌ وَعَامِرٌ وَعُمَيْرٌ وَحَمْزَةُ.

إسلامُ الزُّبَيْر

كَانَ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يَتَرَدَّدُ إِلَىٰ دَارِ عَمَّتِهِ أُمِّ ٱلْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، كَما كَانَ يَغْشَىٰ مَجْلِسَ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِيقِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، وَفي كُلٍّ مِنْهَا قَدِ ٱنْتَشَرَ ٱلإِسْلاَمُ، إِضَافَةً إِلَىٰ أَنَّ أُمَّهُ في بَيْتِهِ كَانَتْ تُحِبُّ ٱبْنَ أَخِيهَا مُحَمَّداً ﷺ حُبّاً عَظِيماً وَتَتَحَدَّثُ دَائِماً عَمَّا ٱمْتَازَ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ، وَلَمْ تَكُنْ قَدِ ٱعْتَنَقَتِ ٱلإِسْلاَمَ بَعْدُ، وَهٰذَا ما جَعَلَ مُحَمَّداً يَكْبُرُ في عَيْنِ وَلَدِهَا ٱلزُّبَيْرِ، وَيَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً مِنْهُ، يَكْتَسِبُ مِنْ صِفَاتِهِ، وَيَتَعَلَّمُ مِنْ أَخْلاَقِهِ.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ - رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ - رَجُلاً يَأْلَفُهُ قَوْمُهُ مُحَبَّباً سَهْلاً، وَكَانَ أَنْسَبَ قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ، وَأَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِهَا، وَبِما كَانَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَكَانَ رَجُلاً تاجِراً، ذا خُلُقٍ وَمَعْرُوفٍ، وَكَانَ رِجالُ قَوْمِهِ يَأْتُونَهُ وَيَأْلَفُونَهُ لأُمورٍ كَثِيرَةٍ، لِعِلْمِهِ، وَتِجَارَتِهِ، وَحُسْنِ مُجَالَسَتِهِ، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَىٰ ٱللهِ وَإِلَىٰ ٱلإِسْلاَمِ مَنْ وَثِقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ مِمَّنْ يَغْشَاهُ، وَيَجْلِسُ

إِلَيْهِ. وكَانَ مِمَّنْ دَعَاهُمُ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ، رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، فَٱسْتَجَابَ، وَأَسْلَمَ، وَلَمْ يَتَجَاوَزِ ٱلسَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ. وَعَلَىٰ هٰذَا يَكُونُ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِنْ أَوائِلِ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا، بَلْ يُعَدُّ خَامِسَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنَ ٱلأَحْرارِ. وَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَاماً.

عَدَتْ قُرَيْشٌ عَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ رِجَالِهَا وَمَوالِيهَا، وَأَذَاقَتْهُمْ مُرَّ ٱلْعَذَابِ، وَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أَصَابَهُمُ ٱلأَذَىٰ إِذ حَاوَلَ أَحَدُ عُمُومَتِهِ أَنْ يَثْنِيهِ عَنِ ٱلإِيْمَانِ فَعَجِزَ، عِنْدَئِذٍ قَيَّدَهُ بِٱلْحِبالِ وَلَفَّهُ في حَصِيرٍ، وَعَلَّقَهُ عَلَىٰ حَائِطٍ، وَأَوْقَدَ تَحْتَهُ نَاراً، وَٱنْدَلَعَتْ أَلْسِنَةُ ٱلدُّخَانِ إِلَىٰ ٱلْحَصِيرِ، وَوَصَلَتْ إِلَىٰ ٱلزُّبَيْرِ، فَٱحْتَرَقَتْ أَنْفُهُ، وَسَالَتِ ٱلدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ مِنْ شِدَّةِ ٱلدُّخَانِ، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ هَالِكٌ لاَ مَحَالَةَ إِلاَّ أَنَّهُ صَبَرَ وَتَجَلَّدَ في سَبِيلِ عَقِيدَتِهِ. وَٱنْتَهَىٰ وَقُودُ ٱلنَّارِ فَٱنْطَفَأَتْ، وَبَقِيَ ٱلزُّبَيْرُ مُعَلَّقاً عَلَىٰ ٱلْحَائِطِ حَتَّىٰ ٱنْتَهَىٰ ٱلنَّهَارُ، فَجَاءَ عَمُّهُ، فَأَنْزَلَهُ، فَوَجَدَهُ قَدِ ٱسْوَدَّ لَوْنُهُ، وَٱحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ شِدَّةِ مَا أَصَابَهُ، وَطَلَبَ مِنْهُ عَمُّهُ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ دِينِ قَوْمِهِ، وَظَنَّ أَنَّ ٱلأَمْرَ قَدِ ٱنْتَهَىٰ، إِلاَّ أَنَّ ٱلزُّبَيْرَ قَدْ رَدَّهُ رَدّاً جَمِيلاً، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ ٱلْكُفْرِ أَبَداً بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ ٱللهُ مِنْهُ،

وَهَلْ يُحِبُّ أَحَدٌ أَنْ يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ . . وَلَكِنَّ ٱلْعَمَّ ٱلْكَافِرَ كَانَ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ، فَلَمْ يَلِنْ، وَإِنَّمَا عَادَ إِلَىٰ تَعْذِيبِهِ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، وَلَكِنَّ ٱلزُّبَيْرَ بَقِيَ رَاسِخَ ٱلإِيمَانِ ثَابِتاً عَلَىٰ ٱلإِسْلاَمِ . وَعِنْدَهَا أَيْقَنَ ٱلْعَمُّ أَنَّ ٱلْعَذَابَ وَسِيلَةٌ غَيْرُ مُفِيدَةٍ، وَلَنْ يَصِلَ إِلَىٰ غَايَتِهِ بِهٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ لِذَا تَرَكَهُ وَشَأْنَهُ . فَٱلإِيمَانُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُبْعِدَهُ ٱلْعَذَابُ، مَهْمَا عَظُمَ، عَنِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلَّتِي تَسْتَصْغِرُ ٱلدُّنْيَا ٱلْفَانِيَةَ وَتَسْتَعْذِبُ ٱلْمَصَائِبَ فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهَا .

الهجرة إلى الحبشة

ٱشْتَدَّتْ وَطْأَةُ قُرَيْشٍ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَرَأَىٰ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مَا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنَ ٱلأَذَىٰ، وَهُوَ فِي مَأْمَنٍ مِنْهُ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُمْ شَيْئاً، فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْهِجْرَةِ إِلَىٰ ٱلْحَبَشَةِ حَتَّىٰ يَجْعَلَ ٱللهُ لَهُمْ فَرَجاً، فَإِنَّ فِيهَا مَلِكاً لاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَيُمْكِنُهُمْ أَنْ يَعِيشُوا هُنَاكَ بِأَمَانٍ وَطُمَأْنِينَةٍ، فَرَحَلَ بَعْضُ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا، وَمِنْهُمُ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ. وَمَا ٱسْتَقَرَّتِ ٱلْحَيَاةُ بِهِمْ مُدَّةً حَتَّىٰ خَرَجَ بَعْضُ ٱلأَحْبَاشِ يُنَازِعُونَ ٱلنَّجَاشِيَّ عَلَىٰ ٱلْحُكْمِ، فَحَزِنَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَشَدَّ ٱلْحُزْنِ، وَخَافُوا أَنْ يَظْهَرَ ٱلْخَارِجُونَ عَلَىٰ ٱلنَّجَاشِيِّ فَلاَ يَعْرِفُونَ لِلْمُسْلِمِينَ حَقّاً كَانَ يَعْرِفُهُ لَهُمُ ٱلنَّجَاشِيُّ. وَسَارَ ٱلنَّجَاشِيُّ إِلَىٰ ٱلْخَارِجِينَ وَكَانَ بَيْنَهُمَا عَرْضُ ٱلنِّيلِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّىٰ يَحْضُرَ وَقِيْعَةَ ٱلْقَوْمِ، ثُمَّ يَأْتِينا بِٱلْخَبَرِ؟ قالَ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ: أَنا، وَكَانَ أَحْدَثَ ٱلْقَوْمِ سِنّاً، قَالُوا: فأنت، فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً، فَجَعَلَهَا فِي

صَدْرِهِ، ثُمَّ سَبحَ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ حَضَرَهُمْ، ثُمَّ عَادَ ٱلزُّبَيْرُ مِنْ حَيْثُ أَتَىٰ وَهُوَ يَقُولُ: أَلاَ أَبْشِرُوا، فَقَدْ ظَفِرَ ٱلنَّجَاشِيُّ، وَأَهْلَكَ ٱللهُ عَدُوَّهُ، وَمَكَّنَ لَهُ في بِلاَدِهِ.

سَمِعَ ٱلْمُسْلِمُونَ في ٱلْحَبَشَةِ أَنَّ ٱلإِسْلاَمَ في مَكَّةَ قَدْ تمَكَّنَ، وَأَنَّ أَهْلَهَا قَدْ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ، فَأَسْرَعَ بَعْضُهُمْ بِٱلْعَوْدَةِ، وَمِنْهُمُ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، وَقَدْ تَاقَتْ نَفْسُهُ لِرُؤْيَةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَٱلنَّهْلِ مِنْهُ. وَلٰكِنَّ ٱلْعَائِدِينَ وَجَدُوا أَنَّ ٱلأَمْرَ في مَكَّةَ لاَ يَزَالُ عَلَىٰ ما تَرَكُوهُ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ بَعْضُهُمْ دُخُولَ بَلَدِهِمْ إِلاَّ بِجِوَارٍ، وَدَخَلَ بَعْضُهُمُ ٱلآخَرُ مُسْتَخفِياً وَمِنْهُمُ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ.

وَمَكَثَ ٱلزُّبَيْرُ في مَكَّةَ عِدَّةَ شُهُورٍ ثُمَّ ٱضْطُرَّ إِلَىٰ ٱلْعَوْدَةِ إِلَىٰ ٱلْحَبَشَةِ، وَلٰكِنَّهُ إِنْ عَادَ بِجِسْمِهِ إِلاَّ أَنَّ قَلْبَهُ بَقِيَ مُتَعَلِّقاً بِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ في مَكَّةَ، وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِٱسْتِمْرَارٍ: أَنَعِيشُ هُنَا في سَلاَمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَرَسُولُ ٱللهِ في مَكَّةَ يُعانِي مِنْ سَادَاتِها ما يُعانيه مِنَ ٱلضَّرِ وَٱلأَذَىٰ، فَلاَ بُدَّ لَنَا مِنَ ٱلْعَوْدَةِ إِلَىٰ بَلَدِنَا نُشَارِكُ رَسُولَ ٱللهِ في حَيَاتِهِ كُلِّهَا، حَتَّىٰ يَقْضِيَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً، فَإِنْ نَصَرَنا ٱللهُ عَلَىٰ عَدُوِّنَا فَذٰلِكَ مَا نَبْغِي، وَإِنْ كَانَتِ ٱلثَّانِيَةُ فَهِيَ في سَبِيلِ ٱللهِ. لِذٰلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَعِيشَ طَوِيلاً في ٱلْحَبَشَةِ، فَعَادَ إِلَىٰ مَكَّةَ لِيَعِيشَ بِجَانِبِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ.

الزُّبَيْرُ في مَكَّة

رَجَعَ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَلاَزَمَ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ، يَنْهَلُ مِنْ عِلْمِهِ، وَيَتَأَدَّبُ مِنْ أَدَبِهِ، وَفِي ٱلْوَقْتِ نَفْسِهِ كَانَ كَثِيرَ ٱلتَّرَدُّدِ عَلَىٰ مَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ. وَٱزْدَادَتِ ٱلأَوَاصِرُ قُوَّةً بَيْنَ هٰذَيْنِ الصَّحَابِيَّيْنِ ٱلْجَلِيلَيْنِ، وَأَرَادَ ٱلزُّبَيْرُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقُرْبَىٰ بَيْنَهُمَا إِضَافَةً إِلَىٰ رَوَابِطِ ٱلأُخُوَّةِ فِي ٱلإِيمَانِ، فَطَلَبَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُزَوِّجَهُ ٱبْنَتَهُ أَسْمَاءَ... إِلاَّ أَنَّ ٱلزُّبَيْرَ كَانَ فَقِيراً وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ مُوسِراً، لٰكِنَّ ٱلْفَقْرَ لَمْ يَكُنْ فِي يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيَّامِ مُقَلِّلاً مِنْ أَهْلِيَّةِ ٱلزَّوَاجِ عِنْدَ أَصْحَابِ ٱلْفِكْرِ وَالرَّأْيِ ٱلسَّدِيدِ، وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱلْكَفَاءَةُ فِي ٱلدِّينِ. وَنَظَرَ أَبُو بَكْرٍ إِلَىٰ ٱلزُّبَيْرِ فَرَأَىٰ فِيهِ أُخُوَّةً بِٱلإِسْلاَمِ وَكَفَىٰ بِهَا رَابِطاً وَكَفَىٰ بِهَا كُفْئاً لِمُصَاهَرَتِهِ، فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي طَلَبِهِ، وَكَانَ ٱلزَّوَاجُ ٱلَّذِي بَارَكَ ٱللهُ فِيهِ، إِنَّهُ قَامَ عَلَىٰ أُسُسِ ٱلإِيمَانِ وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ أُسُسُ ٱلْمَالِ أَوِ ٱلْجَمَالِ أَوِ ٱلْمَصْلَحَةِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ، فَمَا أَقْبَلَ ٱلزُّبَيْرُ عَلَيْهِ إِلاَّ لِتَقْدِيرِهِ لأَبِي بَكْرٍ وَمَعْرِفَةِ صِدْقِهِ وَإِيمَانِهِ وَصُحْبَتِهِ لِرَسُولِ ٱللهِ

ﷺ وَثِقَتِهِ بِهِ، وَٱنْطِلاَقاً مِنْ هٰذَا رَغِبَ فِي ٱلْمُصَاهَرَةِ، وَمَا قَبِلَ أَبُو بَكْرٍ هٰذَا ٱلنَّسَبَ إِلاَّ احْتِرَاماً لِهٰذَا ٱلشَّابِّ ٱلْمُؤْمِنِ ٱلَّذِي عَرَفَ إِيمَانَهُ وَخَبَرَ حَقِيقَةَ رَغْبَتِهِ ٱلَّتِي تَنْبَعِثُ مِنَ ٱلْعَقِيدَةِ... وَتَمَّ ٱلزَّوَاجُ.

وَأُشِيعَ خَبَرٌ فِي مَكَّةَ أَنَّ مُحَمَّداً قَدْ قُتِلَ، فَمَا إِنْ وَصَلَ ٱلْخَبَرُ إِلَىٰ ٱلزُّبَيْرِ حَتَّىٰ هَبَّ مِنْ مَكَانِهِ وَٱمْتَشَقَ حُسَامَهُ، وَٱنْطَلَقَ دُونَ أَنْ يَعِيَ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ لِبَاسِهِ، وَخَرَجَ يَدُورُ فِي طُرُقَاتِ مَكَّةَ، وَٱلْتَقَىٰ عَرَضاً بِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ، فَٱسْتَغْرَبَ مِنْهُ ٱلرَّسُولُ ٱلْحَالَةَ ٱلَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، وَقَالَ لَهُ: مَالَكَ يا زُبَيْرُ؟.

أَجَابَ ٱلزُّبَيْرُ: مَعْذِرَةً يا رَسُولَ ٱللهِ، فَقَدْ بَلَغَنِي خَبَرٌ ـ أَحْمَدُ ٱللهَ عَلَىٰ عَدَمِ صِحَّتِهِ ـ.

قَالَ رَسُولُ ٱللهِ: وَما هُوَ؟.

قالَ ٱلزُّبَيْرُ: سَمِعْتُ أَنَّ ٱلْفَاجِعَةَ ٱلْكُبْرَىٰ قَدْ حَلَّتْ بِنا، فَإِنَّكَ قَدْ قُتِلْتَ.

قَالَ رَسُولُ ٱللهِ: وَمَا كُنْتَ فَاعِلاً لَوْ صَحَّ ٱلْخَبَرُ؟.

قالَ ٱلزُّبَيْرُ: سَأَهْوِي بِسَيْفِي عَلَىٰ كُلِّ كَافِرٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ

حَتَّىٰ لا أَدَعَ وَاحِداً مِنْهُمْ، وَلْتَجْرِ طُرُقاتُ مَكَّةَ دَماً. وَلِهٰذا يُقَالُ: إِنَّ سَيْفَ ٱلزُّبَيْرِ أَوَّلُ سَيْفٍ سُلَّ في سَبِيلِ ٱللهِ. فَدَعَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ لَهُ بِخَيْرٍ.

وَٱسْتَمَرَّتْ حَالُ ٱلزُّبَيْرِ في مَكَّةَ مُصَاحِباً لِرَسُولِ ٱللهِ، وَمُتَرَدِّداً عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ وَبَقِيَّةِ إِخْوَانِهِ ٱلْمُسْلِمِين، وَمُنَافِحاً عَنْ دَعْوَةِ ٱللهِ وَرَسُولِهَا حَتَّىٰ أَذِنَ لَهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بِٱلْهِجْرَةِ إِلَىٰ يَثْرِبَ.

الزُبَيْرُ في يَثْرِب

بَدأَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَىٰ ٱلْقَبَائِلِ فِي ٱلْمَوْسِمِ، يَرْجُو إِسْلامَهَا، وَيَطْلُبُ حِمَايَتَهَا، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُنَفِّرُهَا مِنْهُ، وَتُرَوِّجُ عَنْهُ ٱلشَّائِعَاتِ، وَأَخِيراً ٱلْتَقَىٰ بِجَمَاعَةِ ٱلأَوْسِ وَٱلْخَزْرَجِ سُكّانِ يَثْرِبَ، فَقَبِلُوا ٱلدَّعْوَةَ، وَبَدأَ الإِسْلامُ يَنْتَشِرُ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ، واشْتَدَّتْ وَطْأَةُ قُرَيْشٍ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَأَشَارَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ بِٱلْهِجَرَةِ إِلَىٰ يَثْرِبَ. فَبَدَأَ الصَّحَابَةُ ٱلْكِرَامُ - رِضْوَانُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ - بِٱلْهِجَرَةِ إِلَىٰ يَثْرِبَ وَمِنْهُمُ ٱلزُّبَيْرُ. وَنَزَلَ هُوَ وَٱبْنُ خَالَتِهِ أَبُو سَبْرَةَ بْنُ أَبِي رُهْمٍ عَلَىٰ مُنْذِرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُقْبَةَ بِٱلْعُصْبَةِ. وَأُذِنَ لِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ بِٱلْهِجْرَةِ، وَٱنْتَقَلَ إِلَىٰ يَثْرِبَ ٱلَّتِي غَدَتْ تُعْرَفُ بِٱسْمِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُنَوَّرَةِ، وَآخَىٰ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ في ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُنَوَّرَةِ بَيْنَ المسلمين، ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ، وَقَالَ: تَآخَوْا في ٱللهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ، وَكَانَ فِيمَا آخَىٰ بَيْنَ ٱلزُّبَيْرِ وَعَبْدِ ٱللهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

وَهَاجَرَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ زَوْجُ ٱلزُّبَيْرِ وَهِيَ

حَامِلٌ، فَوَضَعَتْ في ٱلْمَدِينَةِ ٱبْنَهَا عَبْدَ ٱللهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِلْمُسْلِمِينَ.

يَوْمُ بَدْرٍ: بَدَأَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يُجَهِّزُ ٱلسَّرَايَا لِيُؤَمِّنَ ٱلْوَضْعَ حَوْلَ ٱلْمَدِينَةِ، وَلِيَضْغَطَ عَلَى قُرَيْشٍ لِتَعْتَرِفَ بِٱلْمُسْلِمِينَ، وَذٰلِكَ بِٱعْتِرَاضِ قَوَافِلِهَا ٱلَّتِي تَمُرُّ بِٱلْقُرْبِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ ذَاهِبَةً وَآيِبَةً إِلَىٰ ٱلشَّامِ، كَتَهْدِيدٍ ٱقْتِصَادِيٍّ، وَذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ تَهَيَّأَ ٱلْجَوُّ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِذٰلِكَ بَعْدَ أَنْ آخَىٰ بَيْنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ، وَوَادَعَ يَهُودَ. وَفِي إِحْدَىٰ هٰذِهِ ٱلْمَرَّاتِ ٱسْتَنْجَدَتْ قَافِلَةُ قُرَيْشٍ بِأَهْلِ مَكَّةَ، فَأَسْرَعُوا لِنَجْدَةِ عِيرِهِمْ، فَنَجَتِ ٱلْقَافِلَةُ بِتَغْيِيرِ دَرْبِهَا، وَلٰكِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ ٱلْتَقَوْا بِٱلْمُسْلِمِينَ ٱلَّذِينَ خَرَجُوا لا لِلْقِتَالِ؛ وَلٰكِنْ لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً، وَبَعَثَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلزُّبَيْرَ بْنَ ٱلْعَوَّامِ وَسَعْدَ ابْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ مَاءِ بَدْرٍ، يَلْتَمِسُونَ ٱلْخَبَرَ لَهُ، فَأَصَابُوا رَاوِيَةَ[1] قُرَيْشٍ، فَأَتَوْا بِهِمْ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، فَٱسْتَجْوَبَهُمْ، وَٱسْتَطَاعَ أَنْ يَحْصَلَ مِنْهُمْ عَلَىٰ مَعْلُومَاتٍ يُرِيدُهَا. وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ ٱلْكُبْرَىٰ، وَٱلْتَقَىٰ فِيهَا ٱلْمُهَاجِرُونَ وَبِجَانِبِهِمُ ٱلأَنْصَارُ مَعَ أَهَالِي ٱلْمُهَاجِرِينَ فِي

(١) الرواية: الإبل التي يستقى عليها الماء، وكان فيها أسلم، غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار، غلام بني العاص بن سعيد.

مَكَّةَ ٱلَّذِينَ لا يَزَالُونَ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ، وَحَرَصَ كُلٌّ مِنَ ٱلأَهْلِ وَذَوِيهِمْ عَلَىٰ أَنْ يُبَرْهِنُوا عَلَىٰ أَلاَّ لِقاءَ إلاَّ مَعَ ٱلْعَقِيدَةِ. وَقَدْ بَدَأَتِ ٱلْمَعْرَكَةُ بِٱلْمُبَارَزَةِ كَعَادَتِهِمْ فِي ٱلْقِتَال .. وَتَقَدَّمَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ وَٱبْنُهُ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ فَنَزَلَ لَهُمْ فِتْيَةٌ مِنَ ٱلأَنْصَارِ، قَالَ عُتْبَةُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: فِتْيَةٌ مِنَ ٱلأَنْصَارِ.

قَالَ عُتْبَةُ: لا حَاجَةَ لَنَا بِكُمْ .. يا مُحَمَّدُ! أَخْرِجْ لَنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا.

وَهُنَا نُلاَحِظُ أَنَّ أَهْلَ ٱلشِّرْكِ قَدْ دَاسُوا رَوَابِطَ ٱلدَّمِ وَكُلَّ صِلاَتِ ٱلْقُرْبَىٰ، وَوَضَعُوا رَابِطَةَ ٱلْعَقِيدَةِ فَوْقَ كُلِّ رِبَاطٍ.

وَطَلَبَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مِنْ أَقْرِبَائِهِ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ أَنْ يَخْرُجُوا فَقَالَ: تَقَدَّمْ يا عُبَيْدَةُ بْنُ ٱلْحَارِثِ، ٱخْرُجْ يا حَمْزَةُ، ٱخْرُجْ يا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَخَرَجُوا ..

وَبَدَأَتِ ٱلْمُبَارَزَةُ، وَنَصَرَ ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ أَعْدائِهِمْ، فَقَتَلَ ٱلْحَمْزَةُ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَقَتَلَ عَلِيٌّ ٱلْوَلِيدَ، وَتَبَادَلَ عُبَيْدَةُ وَعُتْبَةُ ٱلضَّرَبَاتِ، وَحَمَلَ حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ عَلَىٰ عُتْبَةَ، فَقَتَلاَهُ، وَنُقِلَ عُبَيْدَةُ إِلَىٰ صُفُوفِ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ إِلَىٰ بَارِئِهَا فِي ٱلصَّفْرَاءِ، أَثْنَاءَ عَوْدَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَدْرٍ، وَقَدْ وَضَعَ

رَسُولُ ٱللهِ ﷺ رَأْسَهُ عَلَىٰ فَخِذِهِ.. وَقالَ عُبَيْدَةُ وَرُوحُهُ تَفِيضُ: يا رَسُولَ ٱللهِ عَسَىٰ أَنْ تَكُونَ قَدْ رأَيْتَ مِنَّا ما تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ.

وَبَعْدَ ٱلْمُبارَزَةِ هَجَمَ كُلُّ فَرِيقٍ عَلَىٰ الآخَرِ، وٱحْتَدَمَ ٱلْقِتَالُ، وَٱشْتَدَّ ٱلْمَوْقِفُ، وَٱلْتَفَتَ كُلُّ رَجُلٍ يُفَتِّشُ عَنْ أَقْرَبِ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ لِيَجْعَلَهُ تَحْتَ أَقْدَامِهِ، وَلِيُؤَكِّدَ لِلْمَلأ أَنَّ رَابِطَةَ ٱلْقُرْبَىٰ حَيْثُ وَضَعَهَا ٱلإِسْلاَمُ تَحْتَ ٱلأَقْدَامِ، وَلاَ مَجَالَ لَهَا أَمَامَ آصِرَةِ ٱلْعَقِيدَةِ. فَقَتَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَباهُ، وَنَازَلَ أَبُو بَكْرٍ ٱبْنَهُ عَبْدَ ٱلرَّحْمٰنِ يُرِيدُ مَصْرَعَهُ.. إلاَّ أَنَّ ٱبْنَهُ قَدْ تَغَيَّبَ عَنْهُ، وَكَانَ يَوْمَذاكَ مَعَ ٱلْمُشْرِكِينَ، وَقَتَلَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ خَالَهُ ٱلْعَاصَ بْنَ هِشَامِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ ٱلْمَخْزُومِيِّ. وَٱلْتَقَىٰ ٱلزُّبَيْرُ بِعَمِّهِ نَوْفَلِ بْنِ خُوَيْلِدٍ فَأَطَاحَ بِرَأْسِهِ مُسْتَهِيناً بِقُرْباهُ، وَطَالِباً ثَوَابَ ٱللهِ بِقَتْلِهِ.

وَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ يَوْمَذاكَ مِنْ أَبْطَالِ ٱلْمَعْرَكَةِ ٱلْمَعْرُوفِينَ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ ٱلْمُسْلِمِينَ يَوْمَذاكَ سِوَىٰ فَرَسَيْنِ إِحْدَاهُمَا لِلزُّبَيْرِ، وَتُسَمَّىٰ يَعْسُوبَ، وَٱلأُخْرَىٰ لِلْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرٍو، وَقَدْ لَفَّ ٱلزُّبَيْرُ رَأْسَهُ بِعِمَامَةٍ صَفْرَاءَ تُمَيِّزُهُ عَنْ بَقِيَّةِ ٱلصَّحَابَةِ، وَكَانَتْ عَمَائِمُ ٱلْمَلائِكَةِ بِيضاً إِلاَّ عِمَامَةَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ فَكَانَتْ

صَفْرَاءَ . وَكَانَ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، يُجَنْدِلُ ٱلأَبْطَالَ، وَيَصْرَعُ ٱلْقَادَةَ، فَقَدْ قَتَلَ عُبَيْدَةَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ ٱلْعَاصِ ٱبْنِ أُمَيَّةَ ابْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَهُوَ مَشْهُورٌ بِقُوَّتِهِ، مَعْرُوفٌ بِبُطُولَتِهِ، تُقَدِّمُهُ قُرَيْشٌ وَقْتَ ٱلشَّدَائِدِ، وَٱلْتَقَىٰ ٱلرَّجُلانِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَ عُبَيْدَةُ مُدَجَّجاً بِٱلسِّلاحِ ، عَلَيْهِ عِدَّةُ أَدْرُعٍ لا تَظْهَرُ مِنْهُ إلاَّ عَيْنَاهُ، فَطَعَنَهُ ٱلزُّبَيْرُ بِرُمْحِهِ ٱلْقَصِيرِ ٱلَّذِي أَتَىٰ بِهِ مِنَ ٱلْحَبَشَةِ يَوْمَ كَانَ مُهَاجِراً إِلَيْهَا ، وَٱلمَعْرُوفُ بِٱلْعَنْزَةِ، طَعَنَهُ في عَيْنِهِ طَعْنَةً وَصَلَتْ إِلَىٰ مُؤَخَّرَةِ رَأْسِهِ، فَصَرَخَ عَدُوُّ ٱللهِ، وَوَقَعَ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ كَالثَّوْرِ ٱلْمَذْبُوحِ يَدْفَعُ بِرِجْلَيْهِ ٱلتُّرابَ، فَٱنْحَنَىٰ عَلَيْهِ ٱلزُّبَيْرُ، وَقَضَىٰ عَلَيْهِ. وَقَتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَيْضاً ٱلسَّائِبَ بْنَ أَبِي السَّائِبِ.

وَٱنْتَهَتِ ٱلْمَعْرَكَةُ بِنَصْرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نَصْراً مُبِيناً، وَهَزِيمَةِ قُرَيْشٍ هَزِيمَةً مُنْكَرَةً، وَعَادَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ يَحْمِلُونَ ٱلْغَنَائِمَ، وَيَسُوقُونَ أَمَامَهُمُ ٱلأَسْرَىٰ مُصَفَّدِينَ، وَرَجَعَ ٱلْمُشْرِكُونَ إِلَىٰ مَكَّةَ يَحْمِلُونَ ٱلْخِزْيَ وَٱلْعَارَ، وَقَدْ تَرَكُوا قَادَتَهُمْ صَرْعَىٰ في مَيْدَانِ ٱلْمَعْرَكَةِ، وَخَلَّفُوا زُعَمَاءَهُمْ أُسَارَىٰ بِيَدِ ٱلْمُسْلِمِينَ.

يَوْم أُحُدٍ: وَٱسْتَدَارَ ٱلْعَامُ، وَجَهَّزَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ أَنْفُسَهُمْ

لِلأَخْذِ بِٱلثَّأْرِ، وَٱسْتَعَانُوا عَلَىٰ ذٰلِكَ بِٱلْعِيرِ ٱلَّتِي خَرَجَ ٱلْمُسْلِمُونَ لِلِقَائِهَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَسَارُوا نَحْوَ ٱلْمَدِينَةِ، وَنَزَلُوا أُحُداً، وَخَرَجَ ٱلْمُسْلِمُونَ لِلِقَائِهِمْ، وَأَمَّرَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلزُّبَيْرَ عَلَىٰ ٱلْخَيْلِ، وَمَعَهُ ٱلْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو، وَأَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ عَلَىٰ خَيْلِ ٱلْمُشْرِكِينَ، وَمَعَهُ عِكْرِمَةُ بنُ أَبِي جَهْلٍ، فَبَعَثَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلزُّبَيْرَ، وَقَالَ: ٱسْتَقْبِلْ خَالِدَ بْنَ ٱلْوَلِيدِ، فَكُنْ بِإِزَائِهِ حَتَّىٰ أُوْذِنَكَ، وَأَمَرَ بِخَيْلٍ أُخْرَىٰ، فَكَانُوا مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، فَقَالَ: لاَ تَبْرَحُنَّ حَتَّىٰ أُوْذِنَكُمْ. وَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ يَحْمِلُ ٱللاَّتَ وَٱلْعُزَّىٰ، فَأَرْسَلَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ ٱلزُّبَيْرِ أَنْ يَحْمِلَ، فَحَمَلَ عَلَىٰ خَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ، فَهَزَمَ ٱللهُ خَالِداً وَمَنْ مَعَهُ . ثُمَّ شَدَّ ٱلزُّبَيْرُ وَٱلْمِقْدَادُ عَلَىٰ ٱلْمُشْرِكِينَ فَهَزَمَاهُمْ، وَحَمَلَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَهَزَمُوا أَبَا سُفْيَانَ، وَنَزَلَ رُمَاةُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنَ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي وَضَعَهُمْ فِيهِ ٱلرَّسُولُ ﷺ عَلَىٰ جَبَلِ ٱلرُّمَاةِ وَظَنُّوا أَنَّ ٱلأَمْرَ قَدِ ٱنْتَهَىٰ، وَٱنْتَصَرَ ٱلْمُسْلِمُونَ، فَأَسْرَعَ خَالِدٌ، وَكَانَتْ مَهْزُومَةً خَيْلُهُ، فَٱرْتَقَىٰ ٱلْجَبَلَ، وَقَضَىٰ عَلَىٰ مَنْ بَقِيَ مِنَ ٱلرُّمَاةِ، وَدَاهَمَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنَ ٱلْخَلْفِ، فَٱنْفَرَطَ عِقْدُهُمْ، وَأَصَابَهُمْ مِنَ ٱلْغَمِّ مَا أَصَابَ، وَثَبَتَتْ عِصَابَةٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ حَوْلَ رَسُولِهِمُ ٱلْكَرِيمِ مِنْهُمُ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً .

وعَرَضَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ سَيفاً في يَدِهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: مَنْ يأْخُذُ هٰذا ٱلسَّيْفَ بِحَقِّهِ؟ فقَامَ ٱلزُّبَيْرُ وَقَالَ: أَنَا يا رَسُولَ ٱللهِ، فَأَعْرَضَ عَنَهُ، ثُمَّ قَالَ مَنْ يَأْخُذُ هٰذا ٱلسَّيْفَ بِحَقِّهِ؟ فقَامَ ٱلزُّبَيْرُ ثانِيَةً وَقَالَ: أَنَا يا رَسُولَ ٱللهِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَيْضاً، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَأْخُذُ هٰذا ٱلسَّيْفَ بِحَقِّهِ؟ فَقَامَ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ، فَقَالَ: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ، وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: حَقُّهُ أَلاَّ تَقْتُلَ بِهِ مُسْلِماً، وَأَلاَّ تَفِرَّ بِهِ عَنْ كَافِرٍ، وَأَنْ تَضْرِبَ بِهِ في ٱلْعَدُوِّ حَتَّى يَنْحَنِيَ، وَأَعْطَاهُ إِيّاهُ، وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ رَجُلاً شُجَاعاً يَخْتَالُ عِنْدَ ٱلْحَرْبِ إِذا كَانَتْ، وَوَجَدَ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً وَقَالَ: أَنا ٱبْنُ صَفِيَّةَ عَمَّتِهِ، وَمِنْ قُرَيْشٍ، وَقَدْ قُمْتُ إِلَيْهِ، وَسَأَلْتُهُ إِيّاهُ قَبْلَهُ، فَأَعْطَاهُ أَبا دُجَانَةَ وَتَرَكَنِي، وَٱللهِ لأَنْظُرَنَّ ما يَصْنَعُ، فَٱتَّبَعْتُهُ، فَأَخْرَجَ عِصَابَةً لَهُ حَمْراءَ فَعَصَبَ بِها رَأْسَهُ، فَقَالَتِ ٱلأَنْصَارُ: أَخْرَجَ أَبُو دُجَانَةَ عِصَابَةَ ٱلْمَوْتِ. وَقَدْ أَبْلَىٰ أَبُو دُجَانَةَ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ بَلاَءً لا يَكَادُ يُوصَفُ. وَهٰكَذَا كَانَ ٱلصَّحَابَةُ رِضْوَانُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ يَتَنَافَسُونَ لِلْقِتَالِ في سَبِيلِ ٱللهِ وَمُنَازَلَةِ ٱلأَعْدَاءِ ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِهِ وَأَمَلاً في جَنَّتِهِ.

بَعْدَ أُحُدٍ: حضَرَ ٱلزُّبَيْرُ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ ٱلْمَشَاهِدَ كُلَّهَا

مَعَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ غَزْوَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ يُعَدُّ فِي كُلِّ قِتَالٍ مِنْ أَبْرَزِ ٱلْمُقَاتِلِينَ وَفِي مُقَدِّمَةِ ٱلأَبْطَالِ . لَقَدْ شَهِدَ ٱلْخَنْدَقَ بِجَانِبِ رَسُولِ ٱللهِ، وَأَبْلَىٰ ٱلْبَلاَءَ ٱلْحَسَنَ. وَلَمَّا ٱنْصَرَفَ ٱلأَحْـزَابُ عَـنِ ٱلْمَـدِينَـةِ، عَـادَ رَسُـولُ ٱللهِ ﷺ وَٱلْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا فِي ٱلصَّبَاحِ ، وَمَا ٱنْتَصَفَ ٱلنَّهَارُ إِلاَّ وَجَاءَ أَمْرُ ٱللهِ بِسَيْرِ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ مِنَ ٱلْيَهُودِ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَـداً وَاحِـدَةً مَـعَ أَعْـدَاءِ ٱللهِ، وَكَـانُـوا مِـنْ خَلْـفِ جَيْشِ ٱلْمُسْلِمِينَ. فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ ٱلرَّسُولِ قَائِلاً: مَنْ كَانَ سَامِعاً مُطِيعاً، فَلاَ يُصَلِّيَنَ ٱلْعَصْرَ إِلاَّ بِبَنِي قُرَيْظَةَ.

وَسَارَ رَسُولُ ٱللهِ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَٱسْتَعْمَلَ عَلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ عَبْدَ ٱللهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ، وَقَدَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ بِرَايَتِهِ، فَحَاصَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَعِنْدَمَا تَمَّ ٱلْحِصَارُ نَادَىٰ: عَلِيَّ يا كَتِيبَةَ ٱلإِيمَانِ ، وَتَقَدَّمَ هُوَ وَٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُما، فَعِنْدَمَا رَأَوْهُما لَمْ يَكُنْ لِيَهُودَ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَىٰ حُكْمِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ .

وَكَانَ صُلْحُ ٱلْحُدَيْبِيَةِ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ مَكَّةَ، وَبِهٰذَا تَوَقَّفَتِ ٱلْجَبْهَةُ ٱلْجَنُـوبِيَّـةُ، وَٱلْتَفَـتَ رَسُـولُ ٱللهِ ﷺ إِلَـىٰ ٱلْجَبْهَةِ ٱلشِّمَالِيَّةِ حَيْثُ كَـانَ ٱلْيَهُـودُ قَـدْ تَجَمَّعُـوا فِي وَادِي ٱلْقُرَىٰ وَفَدَكَ وَخَيْبَرَ وَغَيْرِهَـا يُحَـرِّضُـونَ عَلَـىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَيَدْعَمُونَ كُلَّ خَصْمٍ لَهُمْ، وَمَا يَتْرُكُونَ فُرْصَةً يَكِيدُونَ فِيهَا

إلاَّ وَٱسْتَفَادُوا مِنْها. فَسَارَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ إِلَىٰ خَيْبَرَ أَكْبَرِ قَاعِدَةٍ لِلْيَهُودِ، وَدَفَعَ ٱلرَّايَةَ إِلَىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَحَاصَرَ ٱلْمُسْلِمُونَ يَهُودَ ٱلَّذِينَ خَرَجَ بَعْضُهُمْ لِلْمُبَارَزَةِ وَمِنْهُمْ مَرْحَبٌ ٱلَّذِي قَتَلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، ثُمَّ خَرَجَ أَخُوهُ ياسِرٌ وَكَانَ أَكْثَرَ يَهُودَ شَجَاعَةً وَخِبْرَةً فِي ٱلْقِتَالِ وَأَقْوَاهُمْ، فَبرَزَ لَهُ ٱلزُّبَيْرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، فَقَتَلَهُ بِإِذْنِ ٱللهِ.. وَفُتِحَتْ خَيْبَرُ.. وَقُسِمَتْ إِلَىٰ ١٨٠٠ سَهْمٍ بَيْنَ ١٤٠٠ رجلٍ لِكُلِّ رَجُلٍ سَهْمٌ، وَ ٢٠٠ فَارسٍ لِكُلِّ مِنْهُمْ سَهْمَانِ... وَكَانَ لِكُلِّ سَهْمٍ رَأْسٌ جُمِعَ إِلَيْهِ مِائَةَ رَجُلٍ، وَمِنْ هٰؤُلاَءِ ٱلرُّؤُوسِ ٱلزُّبَيْر رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، وَكَانَ أَوَّلَ سَهْمٍ مِنْ خَيْبَرَ هُوَ سَهْمُ ٱلزُّبَيْرِ بْنِ ٱلْعَوَّامِ، وَهُوَ بنطاة وَهُوَ ٱلْخَوْعُ[1].

وَبَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ قَذَفَ ٱللهُ ٱلرُّعْبَ فِي نُفُوسِ أَهْلِ فَدَكَ، فَصَالَحُوا رَسُولَ ٱللهِ ﷺ عَلَىٰ ٱلنِّصْفِ، وَكَانَ ٱلسَّهْمُ مِنْهَا خَالِصاً لِرَسُولِ ٱللهِ. ثُمَّ قَاتَلَ ٱلرُّومَ فِي مُؤْتَةَ مِنْ أَعْمَالِ ٱلأُرْدُنِّ، وَبِهٰذَا تَوَقَّفَ خَطَرُ ٱلْجَبْهَةِ ٱلشِّمَالِيَّةِ.

لَمْ تَلْبَثْ قُرَيْشٌ أَنْ نَقَضَتْ عَهْدَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَسَاعَدَتْ بَنِي بَكْرٍ حَلِيفَتَهَا عَلَىٰ خُزَاعَةَ حَلِيفَةِ رَسُولِ ٱللهِ،

---

(١) بفتح الخاء، وهو موضع قريب من خيبر.

فَكَانَ لاَ بُدَّ مِنْ فَتْحِ ٱلْجَبْهَةِ ٱلْجَنُوبِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَأْدِيبِ قُرَيْشٍ وَدُخُولِ مَكَّةَ. وَلٰكِنَّ رَسُولَ ٱللهِ لَمْ يُحَدِّثِ ٱلْمُسْلِمِينَ عَنْ جِهَتِهِ ٱلَّتِي يُرِيدُهَا، وَلٰكِنْ طَلَبَ مِنْهُمُ ٱلاَسْتِعْدَادَ، فَلَمَّا أَجْمَعَ ٱلْمَسِيرَ لَحَظَ ٱلْمُسْلِمُونَ أَنَّ ٱلْجِهَةَ هِيَ مَكَّةُ، فَكَتَبَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ بِذٰلِكَ؛ لِيَكُونَ لَهُ عِنْدَهُمْ يَدٌ بَيْضَاءُ، وَأَرْسَلَهُ مَعَ ٱمْرَأَةٍ جَعَلَ لَهَا أَجْراً مُعَيَّناً، فَجَعَلَتْهُ فِي رَأْسِهَا، وَلَفَّتْ عَلَيْهِ ضَفَائِرَهَا، وَسَارَعَتْ إِلَىٰ مَكَّةَ. وَأَتَىٰ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ ٱلْخَبَرُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا تَمَّ، فَبَعَثَ ٱلرَّسُولُ ٱلْكَرِيمُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَٱلزُّبَيْرَ بْنَ ٱلعَوَّامِ فِي أَثَرِ ٱلْمَرْأَةِ، فَأَدْرَكَاهَا فَأَخَذَا مِنْهَا ٱلْكِتَابَ بَعْدَ تَهْدِيدِهَا عِنْدَمَا أَنْكَرَتْ، وَأَصَرَّتْ.

سَارَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بِٱلْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَلَمَّا نَزَلَ قَرِيباً مِنْهَا، قَسَمَ جَيْشَهُ، فَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ عَلَىٰ ٱلْمَيْسَرَةِ، وَأَمَرَهُ ٱلرَّسُولُ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ مِنْ كُدَىً (أَسْفَلِ مَكَّةَ). وَجَاءَ نَصْرُ ٱللهِ، وَفُتِحَتْ مَكَّةُ، وَأَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ، وَدَخَلَ ٱلنَّاسُ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجاً.

وَسَمِعَتْ هَوَازِنُ بِدُخُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ مَكَّةَ فَٱجْتَمَعَتْ لَهُمْ، وَٱنْضَمَّ إِلَيْهَا عَدَدٌ مِنَ ٱلْقَبَائِلِ ٱلأُخْرَىٰ وَثَقِيفُ كُلُّهَا، فَخَرَجَ

إِلَيْهِمْ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ بِٱلْمُسْلِمِينَ ٱلَّذِينَ سَارَ بِهِمْ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ ٱلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَٱلْتَقَىٰ ٱلْجَمْعَانِ فِي حُنَيْنٍ، وَأُعْجِبَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِكَثْرَتِهِمْ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكَمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَذٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ». وَٱنْتَصَرَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِإِذْنِ ٱللهِ، وَوَقَفَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ فِي ٱلثَّنِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ، فَٱعْتَرَضَهُمُ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، وَصَمَدَ لَهُمْ، فَلَمْ يَزَلْ يُطَاعِنُهُمْ حَتَّىٰ أَزَاحَهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ.

أَسْلَمَتْ ثَقِيفُ، وَرَجَعَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ، وَأَدَّىٰ ٱلْعُمْرَةَ مِنَ ٱلْجِعِرَّانَةِ، وَمِنْ مَكَةَ ٱنْصَرَفَ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ، فَلَبِثَ فِيهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ أَمَرَ ٱلنَّاسَ بِٱلاَسْتِعْدَادِ لِغَزْوِ ٱلرُّومِ؛ إِذِ ٱطْمَأَنَّ أَنَّ جَبْهَةَ ٱلْجَنُوبِ قَدِ ٱنْتَهَتْ، وَأَنَّ ٱلْعَرَبَ سَتَدِينُ لَهُ بَعْدَ أَنْ خَضَعَتْ قُرَيْشٌ، وَيَجِبُ نَقْلُ ٱلْعَمَلِيَّاتِ كُلِّهَا إِلَىٰ ٱلشِّمَالِ، فَأَمَرَ ٱلنَّاسَ بِٱلاَسْتِعْدَادِ لِغَزْوِ ٱلرُّومِ، وَكَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ، وَحَجَّ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ حَجَّةَ ٱلْوَدَاعِ، وَتَمَّتْ نِعْمَةُ ٱللهِ عَلَىٰ

خَلْقِهِ، وَٱكْتَمَلَ ٱلدِّينُ، وَٱنْتَقَلَ رَسُولُ ٱللهِ إِلَىٰ ٱلدَّارِ ٱلآخِرَةِ، وَٱنْقَطَعَ وَحْيُ ٱلسَّمَاءِ.

ٱلزُّبَيْرُ فِي خِلاَفَةِ أَبِي بَكْرٍ: بَايَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ خَلِيفَةً لِرَسُولِ ٱللهِ، لَمْ يَتَخَلَّفْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ ذٰلِكَ، إِلاَّ مَا كَانَ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلأَوَّلِ حَيْثُ شُغِلَ بَعْضُهُمْ وَلَمْ يُخَبَّرْ آخَرُونَ. وَقَدْ كَانَ ٱلزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا ـ فِي بَيْتِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ حَيْثُ شُغِلَ بِتَمْرِيضِ زَوْجِهِ فاطِمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا، وَمِنْ هذا ٱلتَّأْخِيرِ ٱلْيَوْمِيِّ حِيكَتْ رِوَايَاتٌ لا صِحَّةَ لَهَا عَنْ تَأْخِيرِ هٰؤُلاَءِ ٱلصَّحَابَةِ... إِذْ أَسْرَعَ هٰؤُلاَءِ فَبَايَعُوا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّانِي، وَلَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ فَضْلَ أَبِي بَكْرٍ وَمَنْزِلَتَهُ وَبِخَاصَّةٍ ٱلزُّبَيْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَتَنُهُ وَأَدْرَىٰ ٱلنَّاسِ بِهِ، صَاهَرَهُ لِفَضْلِهِ، وَنَاسَبَهُ لإِيمَانِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَصَادَقَهُ لِصُحْبَتِهِ، أَوَ يَتَخَلَّفُ عَنْهُ!

ٱرْتَدَّتِ ٱلْعَرَبُ، وَأَمْضَىٰ أَبُو بَكْرٍ بَعْثَ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَطَمِعَتِ ٱلْقَبَائِلُ فِي ٱلْمَدِينَةِ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَىٰ أَنْقَابِ ٱلْمَدِينَةِ عَلِيَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ وَٱلزُّبَيْرَ بْنَ ٱلْعَوَّامِ وَطَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ ٱللهِ وَعَبْدَ ٱللهِ بْنَ مَسْعُودٍ. وَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ وَبَقِيَّةُ كِبَارِ ٱلصَّحَابَةِ مِنْ هَيْئَةِ ٱلشُّورَىٰ لأَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ ٱلَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ

بِغَزْوِ ٱلشَّامِ ، وَسَارَ فِي عِدَادِ ٱلْمُجَاهِدِينَ جُنْدِيّاً كَسَائِرِ ٱلْجُنُودِ، لاَ يَبْغِي شُهْرَةً، وَلاَ يُرِيدُ ظُهُوراً ، وَهُوَ ٱلْبَطَلُ ٱلْهُمَامُ، وَأَحَدُ سُيُوفِ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم.

وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ ٱلْيَرْمُوكِ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ أَلْفاً وَبَيْنَ ٱلرُّومِ وَهُمْ فِي ثَلاثِمِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ عَلَىٰ رَأْسِ كَرْدُوسٍ فِي جَيْشِ يَزِيدَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ عَلَىٰ مَيْسَرَةِ قُوَّاتِ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلأَبْطَالِ يَوْمَئِذٍ، فَقَالُوا: أَلاَ تَحْمِلُ فَنَحْمِلَ مَعَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ لاَ تَثْبُتُونَ، فَقَالُوا: بَلَىٰ! فَحَمَلَ وَحَمَلُوا، فَلَمَّا وَاجَهُوا صُفُوفَ ٱلرُّومِ أَحْجَمُوا، وَأَقْدَمَ، فاخْتَرَقَ صُفُوفَ ٱلرُّومِ حَتَّىٰ خَرَجَ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلآخَرِ، وَعَادَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ. ثُمَّ جَاؤُوا إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ فِي ٱلأُولىٰ وَجُرِحَ يَوْمَئِذٍ جُرْحَيْنِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ.

ٱلزُّبَيْرُ فِي خِلاَفَةِ عُمَرَ: عَادَ ٱلزُّبَيْرُ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ بِرَأْيِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ٱلَّذِي كَانَ يَرْغَبُ أَنْ يَكُونَ ٱلصَّحَابَةُ بِجَانِبِهِ يُشِيرُونَ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَفَاهُمْ مِنَ ٱلْجِهَادِ مَا غَزَوْا مَعَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلصُّحْبَةِ.

وَٱسْتَمَرَّ ٱلْجِهَادُ عَلَىٰ ٱلْجَبْهَتَيْنِ ٱلرُّومِيَّةِ وَٱلْفَارِسِيَّةِ، وَكَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ فِي ٱلْعِرَاقِ قَدْ قَلَّ عَدَدُهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ خَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ إِلَىٰ ٱلشَّامِ دَعْماً لِلْمُسْلِمِينَ هُنَـاكَ. فَجَـرَتْ مَعْـرَكَـةُ ٱلْجِسْرِ فَٱسْتَشْهَدَ أَبُو عُبَيْدٍ ٱلثَّقَفِيُّ، فَأَرَادَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسِيرَ بِنَفْسِهِ إِلَىٰ ٱلْعِرَاقِ، فَٱسْتَخْلَفَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ مُقَدِّمَةِ ٱلْجَيْشِ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ ٱللهِ وَعَلَىٰ ٱلْمُجَنِّبَتَيْنِ ٱلزُّبَيْرَ بْنَ ٱلْعَوَّامِ وَعَبْدَ ٱلرَّحْمٰنِ بْنَ عَوْفٍ.. إِلاَّ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلرَّأْيِ وَهُمْ هٰؤُلاَءِ قَدْ أَشَارُوا عَلَيْهِ بِٱلْعُدُولِ عَنْ رَأْيِهِ فَفَعَلَ، وَأَرْسَلَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ عَلَىٰ رَأْسِ نَجْدَةِ ٱلْعِرَاقِ.

وَحَاصَرَ ٱلرُّومُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ ٱلْجَرَّاحِ فِي حِمْصَ، فَطَلَبَ مِنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ ٱلنَّجْدَةَ، فَأَرْسَلَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنْ يَمُدَّ أَبَا عُبَيْدَةَ، وَسَارَ عُمَرُ بِنَفْسِهِ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ ٱلْجَابِيَةِ بِحَوْرَانَ، وَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ ٱلْعَوَّامِ مَعَهُ، وَهُنَاكَ بَلَغَهُ ٱنْتِصَارُ أَبِي عُبَيْدَةَ عَلَىٰ ٱلرُّومِ وَرَدُّ كَيْدِهِمْ.

وَعَادَ عُمَـرُ رَضِـيَ ٱللهُ عَنْـهُ إِلَـىٰ ٱلْمَـدِينَـةِ، وَٱسْتَكْمَـلَ ٱلْمُسْلِمُونَ فَتْحَ بِلاَدِ ٱلشَّامِ، فَبَعَثَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ مِصْرَ عَمْرَو بْنَ ٱلْعَاصِ، وَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ يُرِيدُ ٱلْجِهَادَ وَٱلسَّيْرَ نَحْوَ

أَنْطَاكِيَّةَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يا أَبا عَبْدِ ٱللهِ هَلْ لَكَ في وِلاَيَةِ مِصْرَ؟ فَقَالَ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيهَا، وَلٰكِنْ أَخْرُجُ مُجَاهِداً وَلِلْمُسْلِمِينَ مُعَاوناً، فَإِنْ وَجَدْتُ عَمْراً قَدْ فَتَحَهَا لَمْ أَعْرِضْ لِعَمَلِهِ، وَقَصَدْتُ إِلَىٰ بَعْضِ ٱلسَّوَاحِلِ، فَرَابَطْتُ بِهِ، وَإِنْ وَجَدْتُهُ في جِهَادٍ كُنْتُ مَعَهُ، فَسَارَ عَلَىٰ ذٰلِكَ، فَوَجَدَ عَمْراً مُحَاصِراً لِبَعْضِ حُصُونِهَا، وَقَدْ أَبْطَأَ ٱلْفَتْحُ، فَقَالَ: إِنِّي أَهَبُ نَفْسِي لِلَّهِ، أَرْجُو أَنْ يَفْتَحَ ٱللهُ بِذٰلِكَ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَٱرْتَقَىٰ ٱلزُّبَيْرُ سُورَ ٱلْبَلَدِ، وَدَخَلَهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً، فَلَمَّا أَحَسُّوا خَرَجُوا إِلَىٰ عَمْرٍو مِنَ ٱلْبَابِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ عَمْرٌو، فَأَمْضَوا ٱلصُّلْحَ، وَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ وَٱبْنَاهُ عَبْدُ ٱللهِ وَمُحَمَّدٌ شُهُوداً عَلَىٰ ذٰلِكَ.

عَادَ ٱلزُّبَيْرُ بَعْدَ ٱلْفَتْحِ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ حَيْثُ حَبَسَ عُمَرُ كِبَارَ ٱلصَّحَابَةِ فِيهَا، لِيَكُونُوا مُسْتَشَارِينَ لَهُ. وَمَرَّتِ ٱلسَّنَوَاتُ، وَطُعِنَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، فَٱخْتَارَ سِتَّةً مِنْ كِبَارِ ٱلصَّحَابَةِ لِيَكُونَ ٱلأَمْرُ لَهُمْ، وَلِيَكُونَ ٱلْخَلِيفَةُ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَهُمْ مِمَّنْ بَقِيَ مِنَ ٱلَّذِينَ مَاتَ عَنْهُمْ رَسُولُ ٱللهِ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ وَمِنْهُمُ ٱلزُّبَيْرُ. وَلٰكِنَّ ٱلزُّبَيْرَ لَمْ يَرْغَبْ في ٱلأَمْرِ، فَأَعْطَىٰ نَصِيبَهُ لِغَيْرِهِ.

الزُّبَيْرُ أيامَ عُثْمانَ

بَايَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بَعْدَ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّاب، وَكَانَ ٱلزُّبَيْرُ نَاصِحاً وَمُشِيراً كَمَا كَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. وَسَارَتِ ٱلْفُتُوحَاتُ فِي كُلِّ جِهَةٍ، وَجَاءَتِ ٱلْغَنَائِمُ وَٱلأَمْوَالُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَوَزَّعَهَا عَلَيْهِمُ ٱلْخَلِيفَةُ بِكُلِّ سَخَاءٍ عَلَىٰ عَادَتِهِ بَلْ إِنْ لَمْ تَكْفِ كَانَ يُوَزِّعُ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ مالِهِ ٱلْخَاصِّ. فَعَاشَ ٱلنَّاسُ فِي رَخَاءٍ وَبُحْبُوحَةٍ، وَٱنْصَرَفَ بَعْضُ ٱلصَّحَابَةِ إِلَىٰ ٱلأَمْصَارِ، وَزَاوَلُوا ٱلأَعْمَالَ فَأَثْرَوْا، وَتَعَلَّقَ بِبَعْضِهِمْ سُكَّانُ تِلْكَ ٱلأَقَالِيمِ، وَرَأَوْا فِيهِمْ ٱلْقُدْوَةَ ٱلْحَسَنَةَ.

وَيَكْثُرُ ٱلْحَدِيثُ عِنْدَ ٱلرَّخَاءِ، وَيَظْهَرُ ٱلشَّرُّ مِنْ أَهْلِهِ، فَظَهَرَتْ فِتْنَةٌ أَضْرَمَهَا يَهُودِيٌّ مِنَ ٱلْيَمَنِ أَظْهَرَ ٱلإِسْلاَمَ، وَتَنَقَّلَ فِي ٱلأَمْصَارِ، يُؤَلِّبُ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ ٱلْخَلِيفَةِ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِأُمُورٍ ٱسْتُجِدَّتْ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ، فَزَادَ ٱلْحَدِيثُ، وَوَصَلَ إِلَىٰ ٱلْخَلِيفَةِ، فَلاَكَتْهُ أَلْسِنَةُ أَهْلِ ٱلشَّرِّ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ مِصْرَ وَٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ نَحْوَ ٱلْمَدِينَةِ يُرِيدُونَ تَأْلِيبَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ

خَلِيفَتِهِمْ وَٱلخَلِيفَةُ ٱلْمَظْلُومُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ كَأَبْنَاءَ لَهُ، يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ، وَيُنَاقِشُهُمْ مِمَّا أَطْمَعَهُمْ فِيهِ، فَقَرَّرُوا ٱلْغَدْرَ بِهِ.

وَأَنْجَدَ ٱلصَّحَابَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، وَأَرْسَلُوا أَبْنَاءَهُمْ إِلَيْهِ يَدْفَعُونَ عَنْهُ، وَكَانَ فِي مُقَدِّمَتِهِمُ ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ عَبْدُ ٱللهِ، وَوَقَعَ قَدَرُ ٱللهِ، وَقُتِلَ خَلِيفَةُ ٱلْمُسْلِمِينَ.

الزُّبَيْرُ أيام عليّ

لَمَّا قُتِلَ سَيِّدُنَا عُثْمَانُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ جَاءَ أَصْحَابُ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ إِلَىٰ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ فَقَالُوا: إِنَّ ٱلْخَلِيفَةَ قَدْ قُتِلَ، وَلاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ إِمَامٍ، وَلاَ نَجِدُ ٱلْيَوْمَ أَحَداً أَحَقَّ بِهٰذا ٱلأَمْرِ مِنْكَ، وَلاَ أَقْدَمَ سَابِقَةً، وَلاَ أَقْرَبَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ فَقَالَ: لاَ تَفْعَلُوا، فَإِنِّي أَنْ أَكُونَ وَزِيراً خَيْرٌ مِنْ أَنْ أَكُونَ أَمِيراً، فَقَالُوا: لاَ، وَٱللهِ مَا نَحْنُ بِفَاعِلِينَ حَتَّىٰ نُبَايِعَكَ، فَتَرَدَّدَ ثُمَّ وَجَدَ أَنَّهُ لاَ مَحَالَةَ مِنَ ٱلْمُوَافَقَةِ، فَوَاعَدَهُمُ ٱلْمَسْجِدَ، فَلَمَّا دَخَلَهُ دَخَلَ ٱلْمُهَاجِرُونَ وَٱلأَنْصَارُ، فَبَايَعُوهُ وَمِنْهُمْ طَلْحَةُ وَٱلزُّبَيْرُ، ثُمَّ بَايَعَهُ ٱلنَّاسُ.

لَمْ يَتَمَكَّنْ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ ٱلْمَدِينَةِ؛ إِذْ أَنَّ فِيهَا ٱلْغَوْغَاءَ وَأَصْحَابَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱلرَّعَاعَ، وَهُمُ ٱلَّذِينَ يَتَصَرَّفُونَ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلأُمُورِ، فَأَرَادَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ أَنْ يَأْخُذَهُمْ حِينَ يَتَمَكَّنُ مِنْهُمْ، وَيَسْتَتِبَّ ٱلْوَضْعُ، فَيَجْرِيَ عَلَيْهِمُ ٱلْحَقُّ... فَضَاقَ

بَعْضُ ٱلنَّاسِ بِٱلأَمْرِ ذَرْعاً، وَأَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ، إِلاَّ أَنَّ عَلِيّاً لَمْ يَكُنْ لِيَسْمَحَ لأَمْثَالِ ٱلزُّبَيْرِ بِٱلْخُرُوجِ لِيَكُونَ بِجَانِبِهِ يَسْتَعِينُ بِهِ وَيَسْتَشِيرُهُ، وَلِذٰلِكَ لَمْ يُوَافِقْ عَلَىٰ تَوْلِيَتِهِ ٱلْكُوفَةَ وَتَوْلِيَةِ طَلْحَةَ ٱلْبَصْرَةَ.

خَرَجَ طَلْحَةُ وَٱلزُّبَيْرُ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ بَعْدَ بَيْعَةِ عَلِيٍّ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ رَغْبَةً فِي ٱلْهُدُوءِ وَٱلاَسْتِقْرَارِ وَبُعْداً عَنْ جَوِّ ٱلْمَدِينَةِ. فَٱسْتَأْذَنَا عَلِيّاً بِٱلْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لَهُمَا. وَكَانَتْ عَائِشَةُ أُمُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا ـ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ قَبْلُ إِلَىٰ مَكَّةَ.

كَثُرَ ٱلْقَادِمُونَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَزَادَ ٱلْحَدِيثُ فِي ٱلْفِتْنَةِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَىٰ مَكَّةَ لِيَبْتَعِدَ تَبِعَهُ ٱلأَمْرُ، وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ ٱلْخُرُوجِ مِنْهَا، فَتَوَجَّهَ ٱلزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَعَائِشَةُ أُمُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ نَحْوَ ٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ، لَعَلَّهُمَا أَكْثَرُ هُدُوءاً وَأَبْعَدُ عَنِ الحَدِيْثِ فِي المُشْكِلاَتِ وَخَرَجَ مَعَهُمْ ما يَقْرُبُ مِنْ سَبْعِمِائَةِ رَجُلٍ ثُمَّ تَبِعَهُمْ آخَرُونَ، فَزَادَ ٱلرَّاحِلُونَ عَلَىٰ ٱلثَّلاَثَةِ آلاَفٍ.

أَرَادَ عَلِيٌّ ٱعْتِرَاضَهُمْ وَمَنْعَهُمْ مِنَ ٱلْخُرُوجِ، وَلٰكِنَّهُمْ فَاتُوهُ، وَوَصَلُوا ٱلْبَصْرَةَ، فَٱخْتَلَفَ أَهْلُهَا بَيْنَ مُنْتَقِدٍ لَهُمْ، وَرَاغِبٍ فِي بَقَائِهِمْ لِفَضْلِهِمْ وَصُحْبَتِهِمْ، وَمُطَالِبٍ بِدَمِ عُثْمَانَ،

وَتَضَارَبَتِ ٱلآرَاءُ بَعْدَ أَنِ ٱخْتَلَفَتِ ٱلرِّوَايَاتُ، وَٱخْتَلَطَ ٱلْوُضُوحُ، وَتَقَاتَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ هُنَاكَ.

وَجَاءَ إِلَىٰ عَلِيٍّ أَهْلُ ٱلْكُوفَةِ بِذِي قَارٍ، فَأَرْسَلَ ٱلْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرٍو ٱلتَّمِيمِيَّ إِلَىٰ عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَٱلزُّبَيْرِ، وَبَدَا ٱلصُّلْحُ وَشِيكاً، فَٱلصَّحَابَةُ لا يُرِيدُونَ فُرْقَةً وَلاَ يَبْغُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ إِلاَّ بِمِقْدَارِ مَا يُطَبِّقُونَ فِيهَا حُكْمَ ٱللهِ. وَسَارَ عَلِيٌّ إِلَىٰ ٱلْبَصْرَةِ، وَهُنَاكَ أَصْحَابُ طَلْحَةَ وَٱلزُّبَيْرِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ يُعَكِّرُ صَفْوَ ٱلأُخُوَّةِ بَيْنَ ٱلطَّرَفَيْنِ حَتَّىٰ أَثَارَ ٱلسُّفَهَاءُ وَٱلْعَبِيدُ ٱلْقِتَالَ بَيْنَهُمْ فَٱمْتَدَّتْ نَارُهُ.. وَبِخَاصَّةٍ أَنَّ قَتَلَةَ عُثْمَانَ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ ٱلاتِّفَاقَ لاَ يَكُونُ إِلاَّ عَلَىٰ دِمَائِهِمْ، فَٱلْجَمِيعُ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ ذٰلِكَ، وَقَدْ أَثَارَ ٱلْفَوْضَىٰ بَيْنَ ٱلنَّاسِ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ سَبَأٍ ٱلْيَهُودِيُّ... فَوَقَعَتِ ٱلْحَرْبُ.. وَٱنْتَصَرَ أَصْحَابُ عَلِيٍّ، وَقُتِلَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ بِسَهْمٍ أَصَابَهُ، وَعُقِرَ ٱلْجَمَلُ ٱلَّذِي تَرْكَبُهُ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا.. فَأَمَّا ٱلزُّبَيْرُ فَقَدْ مَضَىٰ وَسَلَكَ وَادِيَ ٱلسِّبَاعِ. وَكَانَ عَلِيٌّ قَدِ ٱلْتَقَىٰ بِطَلْحَةَ وَٱلزُّبَيْرِ قُبَيْلَ ٱلْمَعْرَكَةِ، وَدَنَا مِنْهُمَا حَتَّىٰ ٱخْتَلَفَتْ أَعْنَاقُ دَوَابِّهِمْ، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْدَدْتُمَا سِلاَحاً وَخَيْلاً وَرِجَالاً، وَإِنْ كُنْتُمَا أَعْدَدْتُمَا عِنْدَ ٱللهِ عُذْراً فَٱتَّقِيَا ٱللهَ سُبْحَانَهُ، وَلاَ تَكُونَا كَٱلَّتِي

نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً. أَلَمْ أَكُنْ أَخَاكُمَا فِي دِينِكُمَا، تُحَرِّمَانِ دَمِي وَأُحَرِّمُ دِمَاءَكُمَا! فَهَلْ مِنْ حَدَثٍ أَحَلَّ لَكُمَا دَمِي؟ قَالَ طَلْحَةُ: أَلَّبْتَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ عُثْمَانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ، قَالَ عَلِيٌّ: «يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ»(١)، يا طَلْحَةُ، تُطَالِبُ بِدَمِ عُثْمَانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ! فَلَعَنَ ٱللهُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ. يا زُبَيْرُ، أَتَذْكُرُ يَوْمَ مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ فِي بَنِي غَنْمٍ، فَنَظَرَ إِلَيَّ فَضَحِكَ وَضَحِكْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتَ: لا يَدَعُ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ زَهْوَهُ، فَقَالَ لَكَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ: «صَهْ، إِنَّهُ لَيْسَ بِهِ زَهْوٌ، وَلَتُقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ»؟ فَقَالَ: ٱللَّهُمَّ نَعَمْ، وَلَوْ ذَكَرْتُ ما سِرْتُ مَسِيرِي هٰذَا، وَٱللهِ لا أُقَاتِلُكَ أَبَداً.

فَٱنْصَرَفَ عَلِيٌّ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَمَّا ٱلزُّبَيْرُ فَقَدْ أَعْطَىٰ ٱللهَ عَهْداً أَلاَّ يُقَاتِلَكُمْ، وَرَجَعَ ٱلزُّبَيْرُ إِلَىٰ عَائِشَةَ فَقَالَ لَهَا: مَا كُنْتُ فِي مَوْطِنٍ مُنْذُ عَقَلْتُ إِلاَّ وَأَنا أَعْرِفُ فِيهِ أَمْرِي غَيْرَ مَوْطِنِي هٰذَا، قَالَتْ: فَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَدَعَهُمْ وَأَذْهَبَ، فَقَالَ لَهُ ٱبْنُهُ عَبْدُ ٱللهِ: جَمَعْتَ بَيْنَ هٰذَيْنِ ٱلْغَارَيْنِ، حَتَّىٰ إِذَا حَدَّدَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَرَدْتَ أَنْ تَتْرُكَهُمْ

---

(١) النور: ٢٥.

وَتَذْهَبَ! أَحْسَسْتَ رَايَاتِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعَلِمْتَ أَنَّهَا تَحْمِلُهَا فِتْيَةٌ أَنْجَادٌ، قَالَ: إِنِّي حَلَفْتُ أَلاَّ أُقَاتِلَهُ، وَأَحْفَظَهُ مَا قَالَ لَهُ، فَقَالَ: كَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَقَاتِلْهُ، فَدَعَا بِغُلامٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ مَكْحُولُ، فَأَعْتَقَهُ، وَقَاتَلَ، فَلَمَّا ٱنْصَرَفَ مِنَ ٱلْقِتَالِ وَمَرَّ بِوَادِي ٱلسِّبَاعِ تَبِعَهُ عَمْرُو بْنُ جُرْمُوزٍ، فَلَمَّا لَحِقَهُ نَظَرَ إِلَيْهِ ٱلزُّبَيْرُ ـ وَكَانَ شَدِيدَ ٱلْغَضَبِ ـ قَالَ: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ، فَقَالَ غُلاَمٌ لِلزُّبَيْرِ يُدْعَىٰ عَطِيَّةَ كَانَ مَعَهُ: إِنَّهُ مُعِدٌّ، قَالَ: ما يَهُولُكُ مِنْ رَجُلٍ! وَحَضَرَتِ ٱلصَّلاَةُ، فَقَالَ ٱبْنُ جُرْمُوزٍ: ٱلصَّلاَةَ، فَقَالَ ٱلزُّبَيْرُ: ٱلصَّلاَةَ، فَنَزَلاَ، وَٱسْتَدْبَرَهُ ٱبْنُ جُرْمُوزٍ فَطَعَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ فِي جُرُبَّانِ دِرْعِهِ فَقَتَلَهُ، وَأَخَذَ فَرَسَهُ وَخَاتَمَهُ وَسِلاَحَهُ، وَخَلَّىٰ عَنِ ٱلْغُلاَمِ، فَدَفَنَهُ بِوادِي ٱلسِّبَاعِ، وَرَجَعَ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ بِٱلْخَبَرِ.

وَجَاءَ ٱبْنُ جُرْمُوزٍ إِلَىٰ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ بِٱلْخَبَرِ وَبِسَيْفِ ٱلزُّبَيْرِ... فَٱسْتَأْذَنَ فَقَالَ عَلِيٌّ: لا تَأْذَنُوا لَهُ وَبَشِّرُوهُ بِٱلنَّارِ فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ يَقُولُ: «بَشِّرُوا قَاتِلَ ٱبْنِ صَفِيَّةَ بِٱلنَّارِ». وَدَعَا بِٱلسَّيْفِ ٱلَّذِي حَمَلَهُ إِلَيْهِ ٱبْنُ جُرْمُوزٍ، فَقَالَ: «سَيْفٌ طَالَمَا جَلَّىٰ ٱلْكُرَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ»، وَبَعَثَ بِذٰلِكَ إِلَىٰ عَائِشَةَ.

هٰكَذا كَانَتْ نِهايَةُ هٰذَا ٱلصَّحَابِيِّ ٱلْجَلِيلِ ، فَقَدْ تُوُفِّيَ وَهُوَ فِي ٱلرَّابِعَةِ وَٱلسِّتِّينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَقُتِلَ مَظْلُوماً، وَكَانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِنَ ٱلْمُبَشَّرِينَ بِٱلْجَنَّةِ، وَمِمَّنْ حَمَلُوا عِبْئاً كَبِيراً فِي ٱلدَّعْوَةِ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يَقُولُ: « ٱلزُّبَيْرُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ ٱلدِّينِ » وَيَقُولُ عَنْهُ أَيْضاً « ٱلزُّبَيْرُ عَمُودٌ مِنْ عَمَدِ ٱلإِسْلاَمِ » وَذٰلِكَ لِمَا أَبْلاَهُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ، فَقَدْ أَرَادَ ٱلزُّبَيْرُ مَرَّةً أَنْ يَغْتَسِلَ، وَكَانَ بِأَرْضٍ قَفْرَاءَ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ: ٱسْتُرْنِي حَتَّىٰ أَغْتَسِلَ، فَسَتَرَهُ صَاحِبُهُ، وَلٰكِنْ حَانَتْ مِنْهُ ٱلْتِفَاتَةٌ، فَرَأَىٰ جَسَدَ ٱلزُّبَيْرِ مُجَدَّعاً بِٱلسُّيُوفِ، وَفِيهِ أَمْثَالُ ٱلْعُيُونِ مِنَ ٱلطَّعْنِ ، فَتَعَجَّبَ ٱلرَّجُلُ، وَعِنْدَمَا ٱنْتَهَىٰ ٱلزُّبَيْرُ مِنْ غُسْلِهِ، سَأَلَهُ صَاحِبُهُ قَائِلاً: لَقَدْ رَأَيْتُ فِي جَسَدِكَ مَا رَأَيْتُ مِنَ ٱلْعَجَائِبِ. فَقَالَ ٱلزُّبَيْرُ: أَمَا وَٱللهِ مَا فِيهَا مِنْ جِرَاحَةٍ إِلاَّ مَعَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَفِي سَبِيلِ ٱللهِ.